محمود عبد الوهاب فايد

قرآن
كريم

أحمد عبد العزيز

التربية في كتاب الله

دار الاعتصام

هذا الكتاب ....

فى جمع حاشد من رجال العلم ، وصفوة ممتازة من خيرة المربين ، وبين نظار المدارس والمعاهد وأساتذتها وطلابها ألقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمود فايد هذه المحاضرة التى بين يدى القارئ عن « التربية فى كتاب الله » بدار مدرسة الزراعة الثانوية فى منوف بناء على دعوة وجهت إليه من ناظرها المربى الكبير الأستاذ حلمى عون سلامة .

ومما يجدر ذكره ، أن يستمع لهذه المحاضرة كثير من عقلاء المسيحيين الذين أعجبوا بها كثيراً ، ودهشوا لدقة مباحثها ، وما اشتملت عليه من حقائق دامغة ، وآيات واضحة ، وعلوم نافعة جمعت بين التليد والطريف ، والقديم والحديث . .

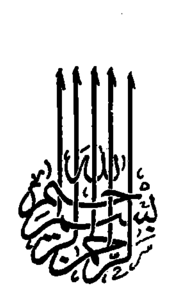
دار الاعتصام

محمود عبد الوهاب فايد



الطبعة الخامسة
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

دار الاعتصام


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين . .

أما بعد . .

فالقرآن آية الله الكبرى ، وحجته الخالدة ؛ نابت وتنوب عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، وخلفته وتخلفه من حين مماته ، وإن يكن الناس خاضعين لسنن الله الكونية ، تمر عليهم أدوار ينفرط فيها عقدهم ، وتشرف عليهم أطوار تختل فيها أنظمتهم ، وتفسد فيها طبيعتهم ، ويصبحون بعد على حال يتطلبون لها رسالة من ربهم ، ويرقبون مرسلا من خالقهم جرياً على سنته ، واتباعاً لطريقته ، فالقرآن مبعوث إلينا ، ورسول لنا ، وحجة علينا بعد خاتم النبيين وتمام المرسلين .

ما اخال أحداً يشك فى أن القرآن كتاب تربية ، ورسول مبين ، وواعظ ناطق ، وبرهان قاطع ، وعقيدة ناصعة ، وآية ساطعة ، وعبادات منتظمة ، ومعاملات مستحسنة ، وتشريع روحي ، وقانون واف ، وسياسة أخاذة ، وإصلاح اجتماعى ، ونظام دولى ، ومجمع علمى ، ودائرة معارف يرجع إليها أهل الفكر ، ويعتمد عليها أرباب النظر « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » ٦ : ٣٨ .

ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول فى حديث رواه الترمذى « كتاب الله . . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

وما أبلغ ما قاله الدكتور « موريس الفرنسى » فى وصف القرآن :

« إنه بمثابة ندوة علمية للعلماء ، ومعجم لغة للغويين ، ومعلم نحو لمن أراد تقويم لسانه ، وكتاب عروض لمحب الشعر وتهذيب العواطف ، ودائرة معارف للشرائع والقوانين ، وكل كتاب سماوى جاء قبله لا يساوى أدنى سورة من سوره فى حسن المعانى وانسجام الألفاظ ، ومن أجل ذلك نرى رجال الطبقة الراقية فى الأمة الإسلامية يزدادون تمسكاً بهذا

الـكتاب ، واقتباساً ، لآياته يزينون بها كلامهم ، ويبنون عليها آراءهم كلما ازدادوا رفعة فى القدر ، ونباهة فى الفكر » اهـ .

* * *

هذه كلمة موجزة فى وصف القرآن الـكريم ؛ ونحن إذا عدنا إليه ، وبحثنا عن التربية فيه استطعنا أن نقرر ونحن مطمئنون بأن القرآن كتاب شامل فى التربية ، فقد وضع دستوراً للتربية العقلية والنفسية والجسمية ، وأشار إلى أصولها فى كثير من آياته ، وجعلها نشيداً يردده المسلم فى صلواته ، ويترنم به فى غدواته وروحاته ، ثم حول هذا النشيد إلى حقائق مدهشة حين ربى عقولا حكيمة ، ونفوساً قويمة ، وأجساماً سليمة .. وها أنذا أتحدث عن أصول التربية فى القرآن . .

التربية العقلية

تقوم التربية العقلية على أسس :

١ – تحرير العقل من سائر القيود والأغلال .

٢ – إثارة الحواس والوجدان . . لأنها أبواب الفكر .

٣ – التزود من العلوم المختلفة التي تزكي العقل ، وترفع مستواه .

والقرآن قد أقام على هذه الأسس دعوته .. فهو لا يقبل أن ينضوي تحت لوائه أعمى أو مقلد ، ولا يرضى أن ينتسب إليه أحد إلا بعد تفكير سليم ، بعيد عن سائر المؤثرات .. ومن هنا قرر « الإسلام » حرية الفكر ، وكرم العقل حيث كرم الإنسان وميزه عن سائر الحيوانات الأخرى ، ومكنه بفكره من أن يضع يده على ماحواه الكون ، واشتملت عليه الطبيعة ، وجعله بعد ذلك مسئولا عن أفعاله أمام الله والناس . . نعم قرر القرآن حرية الفكر ، ودعا إليها ، ورغب فيها ، وحض عليها ؛ وفي سبيل ذلك وضع المبادىء الآتيـــة :

١ – لا يكره الإنسان على الدخول فيه ؛ بل لا يقبل إيمانا عن إكراه . . وفي هذا يقول تعالى : « **لا إكراه في الدين قد**

تبين الرشد من الغي » ٢ : ٢٥٦ . « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ١٨ : ٢٩ . « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ١٠ : ٩٩ . « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل » ١٠ : ١٠٨ .

٢ — دعا إلى التفكير ، والتفكير المنطقى الهادئ . . وفى هذا الباب نجد القرآن يسبق السيكولوجيين فى تقرير نظرية : « الجماهير لا عقل لها » فهو يدعو كل فرد أن يتعمق فى التفكير غير متأثر بعاطفة الجماهير وانفعالاتهم ، قال تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » ٣٤ : ٤٦ . وفى القرآن كثير من التكاليف نجدها مذيلة بالدعوة إلى العقل والتفكير ، فحين يدعو إلى إنفاق ما زاد عن الحاجة يقول : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ٢ : ٢١٩ ، وحين ينهى عما يقطع العلاقة بين الخالق والمخلوق ، وبين الناس بعضهم مع بعض ، لا يغفل عن دعوة العقل فيقول سبحانه : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا

النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » ٦ : ١٥١ . . وهكذا نجد دعوة القرآن من مبدئها إلى نهايتها من العقائد إلى التكاليف يقودها العقل ، ويؤمها المنطق السليم .

٣ ـ نعى القرآن على المقلدين ، وأنكر عليهم أن يغلقوا عقولهم ، ويهملوا أفكارهم . . وهو بهذا يريد أن يكون لهم شخصية كريمة تجعل لهم حياة مستقلة ، وتأبى عليهم أن يفنوا فى غيرهم ، وترتفع بهم عن أن يصبحوا إمعات تتلاشى عقولهم بجانب من يقلدونهم . . وفى هذا يقول : **« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »** ٢ : ١٧٠ . **« بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون »** ٤٣ : ٢٢، ٢٣، ٢٤ .

ويقول أيضا فى بيان ضرر التقليد الأعمى ، وكيف يستبد بالمقلدين حتى يملك عليهم عقولهم ، بل وجوارحهم ، وكيف تسرى عدواه الخبيثة من العقائد إلى الأعمال ، فيقترفون

المـآسى و يرتكبون الآثام تحت تأثيره وتخديره . . يقول تعالى : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون » ٧ : ٢٨ .

وهكذا هدم القرآن التقليـــد ، ورفض إيمان المقلد ، وشنع على المقلدين فقال : « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » ٧ : ١٧٩ ، وقال : « قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » ٦ : ٥٠

وأعلن فى صراحة أن إهمال العقل هو مفتاح باب جهنم ، فقال حكاية عن أهل النار : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » ٦٧ : ١٠ .

وقال ينذر المقلدين بسوء المصير ويبين لهم حالهم مع سادتهم يوم القيامة : « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » ٣٣ : ٦٦ ، ٦٧ ، « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار » ٢ : ١٦٦ ، ١٦٧ .

ويظل القرآن وراء المقلدين فى كل مكان فينكر عليهم الضعف العقلى ، والخنوع والمذلة لأى إنسان مهما كبر مقامه ، أو غلب سلطانه ، فيقول سبحانه : « **وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد** » ٤٠ : ٤٧ ، ٤٨ ويقول : « **ولو ترى إذا الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين** » ٣٤ : ٣١ ، ٣٢ .

٤ ـ واحتراماً لحرية الفكر قام الإسلام على الدعوة الكريمة والخطة الحكيمة ، والطريقة القويمة .. قام على الإقناع بالبرهان ، والتفاهم بالحجة ، والمحاورة بالتى هى أحسن .. قال تعالى : « **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** » ١٦ : ١٢٥ .

ولا يلتجئ الإسلام إلى القوة إلا مضطراً ؛ حين يتحرش به الخصم ، ويحتمى فى قوة السنان بدلا من قوة البرهان .. وهنا لاعيب على الإسلام حين يتجنب مظاهر الضعف ،

فيقابل العدوان بالعدوان ، ويصد القوة بالقوة ، والشر بالشر والبادى أظلم .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

نعم لا عيب على القرآن حين يقرر : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** » ١٢ : ١٩٠ فالقوة حين تقف دون حرية التفكير ، وحسن التفاهم يجب أن تزال ليعود للفكر حريته ، وللعقل احترامه وقداسته .

أيهـــا السادة . .

هذا هو مدى تقديس القرآن لحرية الفكر ، واحترامه لسلطان العقل . . وكفى القرآن فخراً أن أسلافنا الأوائل الذين فهموه حق الفهم ، وآمنوا به أصدق الإيمان ، قد بلغوا بحرية الفكر أعظم مدى ، حين قرروا أنه إذا تعارض العقل مع ظاهر النقل ، وجب تأويل النقل بما يتفق مع العقل ، وبهذه الحرية الفكرية البالغة كانوا أئمة الهدى ، وأعلام الفكر ، ومفخرة الزمان . . ولا عجب فالقرآن يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى** » ١٢ : ١٠٨ .

إثارة الحواس

بعد هذا أنتقل بكم إلى الأساس الثانى فى التربية العقلية ، وهو إثارة الحواس فنقول :

احترم القرآن الحواس ، وأثبت أنها أبواب المعرفة فقال : « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** » ١٦ : ٧٨ ، وقال ممتناً على الإنسان : « **ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين** » ٩٠ : ٨، ٩، ١٠ . وفى الآية الأولى نلاحظ أنه قدم السمع والأبصار على الأفئدة ، وذلك لأنهما مصدر الإشارات الفكرية ، ومنفذ المعلومات العقلية ، واحتراماً لسلطان الحواس أجاب الله إبراهيم حين قال : « **رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم** » ٢ : ٢٦٠ .

نظر القرآن إلى الحواس نظرة كريمة فحثها على التأمل

فى بديع صنع الله، وعجيب مخلوقاته .. قال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ١٠ : ١٠١ ، « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » ٧ : ١٨٥ « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » ٥٠ : ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١ « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ، وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » ١٥ : ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢ ، وقال يستثير حاسة السمع : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » ٣٩ : ١٧ ، ١٨ ، ففتح أذن الإنسان ، ثم فتح عقله ، وأتبع لعقله بعد ذلك جوارحه .

وهكذا نجد القرآن يثنى على أولئك الذين يميزون بين مايلقى عليهم من خير وما يلقى عليهم من شر ، بل بين ما هو حسن وأحسن . . وهذا هو أدق وأرق درجات الحساسية ، ولم يفت القرآن أن يشيد بفضل هذه الحاسة ، وأن ينوه بأثرها فى الحياة فقال : « **إنما يستجيب الذين يسمعون** » ٦ : ٣٦ ، « **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** » ١٠ : ٦٧ .

وأخيراً ينعى القرآن على أولئك الذين يهملون حواسهم ، ويغفلونها فيقول : « **صم بكم عمى فهم لا يعقلون** » ٢ : ١٧١ ، « **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** » ٨ : ٢٢ « **إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم** » ٢٧ : ٨٠ ، ٨١ ، « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** » ٢ : ٧ ، ويقول حكاية عن الكفار : « **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب** » ٤١ : ٥ .

وهكذا نجد القرآن يدعو إلى إعمال العقل والحواس ، وينفر من إهمالها .. وحسبنا دليلا على ذلك ما قدمناه من الآيات السالفة . .

توسيع مدارك الفكر بالعلوم المختلفة

بقى بعد ذلك أن نتحدث عن الأساس الثالث . . وهو توسيع مدارك الفكر بالعلوم المختلفة فنقول :

دعا القرآن إلى العلم ، ورغب فيه ، وحث على تلقيه ، ونوه بفضله ، وأشاد بأهله . . يدلنا على ذلك ما يأتى :

١ – كرم العلم منذ أنشىء الإنسان الأول ، وبه ميزه على الملائكة ، ورشحه لمنصب الخلافة فى الأرض ، قال تعالى : **« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون » ٢ : ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣ .**

وهكذا رفع قدره ، وأظهر فضله بالعلم الذى حلاه به ، وأفاض عليه من علمه .

٢ ـ كرم العلم منذ بدء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حيث نزل عليه جبريل لأول مرة ومعه من القـــرآن : **« إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »** ٩٦ : ١، ٢، ٣، ٤، ٥ .

ولا شك أن هذه الآيات تعتبر القذيفة الأولى التى انطلقت نحو الأمية ، وإبادتها والقضاء عليها ، ويعزز ما ذهبنا إليه أن الله أقسم بالقـــلم ورفع من شـــأنه فقال : **« ن ، والقلم وما يسطرون »** ٦٨ : ١ وما ألطف قول الشاعر :

إذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم
وعدوه ممـا يكسب المجد والـكرم
كفى قلم الـكتاب مجداً ورفعـة
مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

٣ ـ كرم العلم حتى بين العجماوات ، فميز الكلب المعلم على غير المعلم فأباح لنا أن ناكل مما صاده وأمسكه علينا .. قال تعالى : **« وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه »** ٥ : ٤ .

٤ ـ كرم العلم حيث منح أهله الدرجات الرفيعة ، وقصر عليهم الصفات العالية التى يتسابق الناس إليها ، ويتهالـكون

عليها فقال تعالى : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** » ٥٨ : ١١ وقال : « **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** » ٢٩ : ٤٣ ، وقال : « **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » ٣٩ : ٩ .. فأعلن فى هذه الآيات أنه لا مساواة بين عالم وجاهل ، بل العالم عظيم المكانة ، رفيع الدرجات ، يمتاز بالعقل والفطانة والفهم ، وأعظم من هذا أن يستشهد الله بالعلماء ، ويعتد بشهادتهم فى حقه فيقول سبحانه : « **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط** » ٣ : ١٨ ، وهذا تكريم لا يدانيه تكريم .

نشر العلم ومجانية التعليم

بعد هذا يحارب القرآن الجهل عملياً ، فلا يكتفى بالازدراء به وتنفير الناس عنه ، بل يضع الخطة الحكيمة لإبادته والقضاء عليه .. فيعمل على نشر العلم ، وييسر سبله ، ويقرر مجانية التعليم وينادى بلسان المعلم الأول «**لا أسألكم عليه أجراً**» ٦ : ٩٠ ، ويناشد الناس بعد ذلك أن يرحلوا فى طلب العلم ليعودوا فيعلموا من وراءهم .. قال تعالى : « **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** » ٩ : ١٢٢ .

ولا شك أن هذا الطريق الذى رسمه القرآن هو أقصر الطرق وأنفعها فى نشر التعليم ، ومحو الجهل والقضاء على الأمية .

ميزان العلم

وضع القرآن قاعدة سليمة لوزن المعلومات ، وتمييز صحيحها من زائفها وغثها من ثمينها ، فقرر أن المسائل لا تأخذ طابعاً علمياً ولا ترتقى إلى درجة معلومات إلا إذا قامت عليها بينة ، واستندت إلى دليل .. ومن ثم كان القرآن ينادى دائماً : « **هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** » ٢ : ١١١ « **هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون** » ٦ : ١٤٨ « **ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم** » ٤٦ : ٤ « **ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** » ١٧ : ٣٦ ، وهذه الآية الأخيرة تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند إلى حجة سمعية ، أو رؤية بصرية ، أو براهين عقلية ، وهى طرق الاستدلال التى تنحصر فى العقليات والسمعيات والمحسوسات .

هذا الميزان الدقيق الذى وضعه القرآن ، يدفع الناس دفعاً إلى تلمس الأدلة ، ويمشى بهم فى طريق النور والمعرفة ،

وفى مبدأ الطريق يلقاهم العلم بالترحيب ، ويفتح لهم بابه على مصراعيه ، ولا يضع أمامهم حداً للترقى ، فالقرآن يهتف بهم على الدوام : « **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** » ١٧ : ٨٥ « **وفوق كل ذى علم عليم** » ١٢ : ٧٦ وهو يطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستزيد من العلم فيقول : « **وقل رب زدنى علما** » ٢٠ : ١١٤ وللناس أسوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليهم أن يستقلوا ما عندهم من معارف ، ويستزيدوا من سائر العلوم . .

وهكذا نجد القرآن يرفض أن يقف بالعلم عند حد ، بل يفتح لهم باحة ليس لها نهاية ، يذهبون فيها حيث يشاءون ، ويتنقلون فى جنباتها كما يريدون .. وأخيراً فهو يقدم إليهم بعد ذلك سفرين عظيمين ينعمون بالنظر فيهما ، ويستنبطون منهما حقائق علمية لا حد لها ولا نهاية .

سفر الكون

أولهما سفر الوجود ، وصحيفة العالم ، وكتاب الكون ، وقد أمر الله عباده بأن يكثروا النظر فيه ، ويديموا التأمل فى معانيه ، قال تعالى : « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** » ١٠ : ١٠١ ، « **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » ٢٢ : ٤٦ .

ولا شك أن الكون هو مستودع كل سر ، ومستقر كل علم ، يشهد لهذا ما نسمعه كل يوم من الاختراعات ، والمبتكرات ، والنظريات العلمية الثابتة ؛ وإذا كنا نعد مخترع القنبلة الذرية أو الهيدروجينية عظيما ، رغم أنه لم يأت بشيء من عند نفسه . . بل اكتشف بعقله المخلوق لله مواد بثها الخالق فى الكون ، فعلينا أن نقول : إذا قلنا إن هذا المخترع عظيم (الله اعظم) ؛ وصدق الله العظيم إذ يقول : « **وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** » ١٢ : ١٠٥ ولا شئ يظهر آيات الله سوى الفكر وإنعام النظر كما قال الله تعالى فى أولى الألباب من عباده : « **ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا** » .

سفر القرآن

والسفر الآخر هو القرآن ، قال تعالى : « **فاقرأوا ما تيسر منه** » ٧٣ : ٢٠ . . والقرآن هو خزينة الأسرار ، وجماع العلوم والأنوار ، وضياء البصائر والأبصار .. قال تعالى : « **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** » ١٦ : ٨٩ .

ويهمنا هنا أن نقرر أن العلم الذى دعا إليه القرآن ، يسع سائر العلوم الحديثة التى جدت وتجد ؛ ولا يقصر مدلوله عن الإحاطة بها . . كيف يوجه أنظارهم إلى العالم بأجمعه ، بكل مافيه من أسرار ومكنونات .. ومن غير شك أن هذه الدعوة تقتضى منا أن نلم بالعلوم الحديثة .. فكلما وعيناها ازددنا فهما لكتاب الله ، وإيماناً بمنزلته .

على أن القرآن نفسه وصف بالعلم أولئك الذين يلمون بعلوم الطبيعة ، ويقفون على أسرار الكون ، فأطلق عليهم (علماء) تارة ، وسماهم (العالمين) تارة أخرى فقال تعالى : « **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من**

عباده العلماء) ٣٥ : ٢٧، ٢٨ وقال : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » ٣٠ : ٢٢

فبعد ذكر مظاهر الطبيعة ومشاهد الكون أتى بالعلماء وأثنى عليهم .. وفى هذا دلالة واضحة على أن المراد بهم أولئك الذين يبحثون فى الوجود ، ويقفون على أسراره وعجائبه ، ويصلون إلى مكنوناته وغرائبه .. وأخيراً يعودون وقد بهرتهم صنعة الله ، واسترعتهم آياته التى بثها فى خلقه لتدل عليه ، وترشد الناس إليه . .

فيا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

• • •

يقولون أين الله أين عجائبه ... وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم ... ويبدون ما بال القلوب تكذبه
فأى امرئ ما سبح الله مرة ... إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
وأى امرئ فى الجو يرسل طرفه ... إذا مابدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله فى عرش مجده ... وهذى حواشيه وهذى مواكبه
عجائب ربى فى الأنام كثيرة ... ولكن جهل المرء لا شك غالبه

العلوم التى يوحى بها القرآن

أيها السادة . .

حقاً إن القرآن يدعو إلى العلم بأوسع معانيه ، وأبعد حدوده وأهم العلوم التى يوحى بها القرآن :

١ – **علوم اللغة العربية** : وهذه يقتضيها حسن النظر فى كتاب الله . . قال تعالى : « **إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** » ٤٣ : ٣ .

٢ – **علوم الحيوان والتشريح والطب والنفس** : وهذه تقتضيها الدعوة إلى النظر فى النفس ، والناس ، والدواب ، والأنعام ، ويوحى بها الأمر باتخاذ الوقاية ، قال تعالى : « **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** » ٥١ : ٢١ ، « **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** » ٢٣ : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ وقال : « **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** » ٢ : ١٩٥ ، وقال : « **وإن لكم فى الأنعام لعبرة** » ١٦ : ٦٦ .

٣ – **علوم الجيولوجيا والجغرافيا والفلك والحساب** : وهذه

توحى بها الدعوة إلى النظر فى الجبال وطبقات الأرض وأحوالها والدعوة إلى النظر فى الشمس ، والقمر والأفلاك ، والاهتداء بها فى معرفة السنين والحساب . . قال تعالى :

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شي حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون » ٢١ : ٣٠، ٣١ : ٣٢ : ٣٣وقال : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » ١٠ : ٥

٤ ــ **علوم النبات** : وهذه تقتضيها الدعوة إلى النظر فيما تنبته الأرض من زروع وأشجار ، وثمار وأزهار . . قال تعالى : **« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »١٦ : ١٠ ، ١١ « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها**

على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ١٣ : ٤

فالذين يتفكرون فى النباتات ، ويتعمقون فى بحثها وفحصها ، يصلون إلى أسرار وآيات تشهد بعظمة مبدع الكائنات .

٥ ـ **علوم التاريخ والآثار** : وهذه تقتضيها الدعوة إلى السير فى الأرض ، وتعرف أخبار الأوائل ، والاتعاظ بها .. قال تعالى : **« أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات » ٣٠ : ٩ . « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض » ٤٠ : ٨٢**

وللقرآن سبق فى هذا .. فقد قص علينا أحسن القصص ، وحدثنا عن أخبار الرسل مع أتباعهم . . قال تعالى : **« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » ١١ : ٤٩** ، وقال : **« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ١٢ : ١١١** .

٦ ـ **علوم الجندية والجيش** : ويقتضيها قوله تعالى : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ٨ : ٦٠** .

القرآن والحرف

أيها السادة . .

هذه بعض العلوم التى يتطلبها القرآن ، ويقتضيها حسن النظر فيه . . ولا يفوتنا أن ننبه الأذهان إلى مافى القرآن من إشارات خفية إلى أنواع من الحرف والفنون ، لها أثر مشاهد فى حياة الناس .

ففيه إشارة إلى بعض المعادن وصناعتها .. قال تعالى : « **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** » ٥٧ : ٢٥ ، وقال « **وأسلنا له عين القطر** » ٣٤ : ١٢ ؛ « **ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع** » ١٣ : ١٧

وفيه إشارة إلى صناعة الطوب والبناء قال تعالى : « **فأوقد لى يا هامان على الطين** » ٢٨ : ٣٨ « **ياهامان ابن لى صرحاً** » ٤٠ : ٤٦ ، وفيه إشارة إلىالنجارة . . قال تعالى : « **واصنع الفلك بأعيننا** » ١١ : ٣٧ ، وفيه إشارة إلى الملاحة والغوص قال تعالى : « **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا**

من فضله» ١٦ : ١٤ ، وفيه إشارة إلى الزراعة : قال تعالى : « تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون » ١٢ : ٤٧ « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، إنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأباً ، متاعاً لكم ولأنعامكم » ٨٠ : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ؛ وفيه إشارة إلى التجارة .. قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » ٤ : ٢٩ وفيه إشارة إلى علوم القراءة والكتابة ، قال تعالى : « إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم » ٩٦ : ٣ ، ٤ .

القرآن يسبق العلم الحديث

أيها السادة . .

هذه إشارات يحتاج شرحها إلى مجلدات ، وهذا إيجاز ينطوى على إعجاز.. فسبحان من أودع فى كتابه هذه الأسرار ، وطوى فيه من العجائب ما خلب القلوب وبهر الأنظار . . وحسبنا فى هذا المقام أن نشير إلى طرف من سبق القرآن فى العلوم الحديثة .

١ – يقول علماء الكيمياء : إن كل جسم يتركب من عناصر مختلفة بنسب معينة ؛ وهذا ما يسمى عندهم بالأوزان الكيمائية . . وهذه النظرية قد سبق إليها القرآن حيث يقول : **« إنا كل شيء خلقناه بقدر »** ٥٤ : ٤٩ ، **« وخلق كل شيء فقدره تقديراً »** ٢٥ : ٢ .

٢ – ويقولون أيضاً : لو زاد أوكسجين الهواء لاضطربت نفوس الأحياء ، ولو زادت نسبة نتروجينية لحل بها الموت . ونقول: قد أشار القرآن إلى هذا حيث يقول: **« وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم »** ١٥ : ٢١ .

٣ – ويقولون أيضاً: إن أوكسجين الهواء يتناقص فى طبقات الجو مما يعرض الإنسان للاختناق ، ومن أجل هذا يتزود

الطيارون بالهواء الصناعى خشية المفاجآت .. ونقول: قد سبق القرآن إلى تقرير هذا فقال : « **ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء** » ٦ : ١٢٥ .

٤ ـ ويقول علماء الجغرافيا : إن أصل العالم السديم (الأثير) وهذه النظرية قد سبق إليها القرآن . . قال تعالى : « **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً** » ٤١ : ١١

٥ ـ ويقولون : إن العالم كان كتلة واحدة ثم تناثرت وانفصل بعضها عن بعض .. وإلى ذلك سبق القرآن.. قال تعالى : « **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما** » ٢١ : ٣٠ .

٦ ـ ويقولون : إن الأرض منبعجة من الوسط ، مفرطحة من الأطـراف .. ونقول : قـد سبق القرآن لهـذا فقال : « **أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها** » ٧١ : ٤٤ .

٧ ـ ويقولون : إن الأرض تدور حول الشمس ، وليست ثابتة كما يظن الإنسان .. ونقول : قد أشار القرآن إلى هذا فى قوله تعالى : « **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء** » ٢٧ : ٨٨ وهنا يلزمنى أن أقف عند هذه الآية وقفة قصيرة .. فقد كان البعض يحملها على

يوم القيامة عندما يزول العمران ، وتتخرب الأرض .. وحجة هؤلاء أن الآية ذكرت فى معرض الحديث عن مشاهد القيامة .. ونقول : إن الفهم الذى فهمناه لا يمنع منه مانع ، وقد يعين عليه أن القرآن يخاطب المجتمع الحاضر حين يقول : « **وترى الجبال** » فهو يخاطب كل من تأتى منه الرؤية فى عالمنا الحالى ، وهو بعد ذلك يقول : « **صنع الله الذى أتقن كل شىء** » ، والإتقان لا يتناسب مع خراب الأرض ، وإنما يتناسب مع تسييرها بسرعة عجيبة تبلغ الـ (١٨٣٠) كيلو فى الدقيقة الواحدة دون أن يحس بها الإنسان ، وهذا الفهم لا ينافيه تقدم الحديث عن يوم القيامة ، فاقتران بدء العالم بنهايته يكشف نواحى الإبداع ، ويبرز دلائل القدرة ، ويناصر هذا الفهم ما جاء فى ختام السورة « **سيريكم آياته فتعرفونها**) ٢٧ : ٩٣ .

٨ – يقولون أيضا : إن من فوائد الرياح أنها تسوق السحب من جهة إلى جهة .. ونقول : قد قرر القرآن ذلك فقال : « **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء** » ٣٠ : ٤٨ .

٩ – ويقول علماء الجيولوجيا (طبقات الأرض) : إن الأرض متزنة بالجبال ، ولولاها لمادت واختل نظامها ،

ونقول : قد سبق القرآن إلى هذا فقال : « **وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم** » ٢١ : ٣١ .

١٠ — ويقول علماء النبات : إن الرياح وسيلة من وسائل التلقيح .. ونقول : قد قرر القرآن هذا من قبل فقال : « **وأرسلنا الرياح لواقح** » ١٥ : ٢٢ .

١١ — ويقول علماء الذرة : قد تبين اليوم فساد المذهب القديم الذى كان يقرر أن الذرة لا تتجزأ .. فقد تمكن العلم الحديث من تفتيتها .. ونقول : قد قرر القرآن أن هناك ما يصغر عن الذرة قال تعالى : « **عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** » ٣٤ : ٣ .

١٢ — ويقول علماء الفلك : إن للنجوم السيارة مدارات تجرى فيها دواماً ، ولو تجاوزتها قليلا لاضطرب العالم ، واختل نظامه ، وقد استدل بهذه النظرية إسحاق نيوتن على وجود الله رداً على سؤال لكبار علماء انجلترا .. ونقول : قد أشار القرآن إلى هذا حيث أقسم الله بها فقال : « **فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** » ٥٦ : ٧٥ ، ٧٦ وما أقسم الله بها إلا لخطرها وأثرها فى نظام العالم على النحو الذى أراده .

١٣ — ويقول الباحثون فى العالم العلوى : إن المريخ والسيارات الأخرى بها حيوانات .. ونقول : قد أشار القرآن إلى هذا فقال : « **ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة** » ٤٢ : ٢٩ ، فأتى بالضمير مثنى يعود على كل من السموات والأرض .

١٤ — يقول الباحثون فى الكون : إن ناموس الازدواج يجرى فى كل شيء .. فالجمادات تتنوع إلى نوعين : سالب وموجب ، والنباتات والحيوانات تتنوع إلى نوعين : ذكر وأنثى . . ونقول : قد سبق القرآن إلى هـذا فقرر : « **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** » ٥١ : ٤٩ .

١٥ — يقول العلماء المحدثون : إن السحب بها نوعان من الكهربة .. أحدهما سالب والآخر موجب . . وبهذا أمكن تآلفها وانسجامها .. ونقول : هذا هو عين ما أشار إليه القرآن : « **ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه** » ٢٤ : ٤٣ .

١٦ — ويقولون : اكتشف دارون قانوناً جرى عليه الكون وهو (البقاء للأصلح) ونقول : قد سبقه القرآن فقال : « **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** » ١٣ : ١٧ .

١٧ ــ انتهى العلماء المحدثون إلى أن الإنسان أصله تراب تحول إلى نبات وحيوان ، ثم دخل فى الجسم ثم صار إنساناً ، ونقول : هــذا هو ما قرره القــرآن من قبل ، قال تعالى : **« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »** ٣٠ : ٢٠ .

والعجب أن علماء المسلمين القدامى كانوا يختصون آدم وحده بالخلق من التراب ، وكانوا يرون أبناءه مخلوقين من النطفة ــ أى المـادة المنوية التى أعطوها صفة الموت ــ وعلى هذا فهموا قوله تعالى : « **يخرج الحى من الميت** » ولـكن العلم الحديث أعطى المـادة المنوية صفة الحياة ، فلم يبق هناك مفر من إبقاء القرآن على ظاهره .. والقول أننا جميعاً من تراب كما تفيده الآية ، وكما تؤيده بقية الآيات الأخرى **« قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا »** ١٨ : ٣٧ ، **« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من من نطفة »** ٢٢ : ٥ **« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلـكم أزواجاً »** ٣٥ : ١١ .

١٨ ــ ويقول علماء البصمات : إن الأصابع هى أدق أعضاء الإنسان ، ولا يمكن التماثل فيها بين شخصين .. ونقول :

من أجل هذه الدقة رد الله على منكرى البعث فقال :
« بلى قادرين على أن نسوى بنانه » ٧٥ : ٤ فكأنما المولى يقول
لهم : إننا قادرون على إعادة أدق الجوارح التى يتمايز بها
الناس بعضهم عن بعض ، ومن قدر على إعادة أدقها قدر
على إعادة ما دون ذلك من بقية الأعضاء . . وهكذا يكشف
العلم الحديث سر تخصيص البنان بالإعادة والتسوية .

١٩ — يقول المخترعون : قد أمكن تسيير القطارات
والطائرات والسيارات وغيرها من وسائل النقل والركوب . .
ونقول : قد وعد القرآن بهذا فقال عقب وسائل الركوب
المعهودة : **« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق
ما لا تعلمون »** ١٦ : ٨ .

أيها السادة . .

هذه هى مدرسة القرآن ، وتلك إشارتها وتعاليمها ، وهى
تحضنا على دراسة الطبيعية ، وتدعونا إلى فهمها . . فكثيراً
من آيات القرآن لا يسهل فهمها إلا على ضوء العلوم الحديثة . .
وإذا كان هناك ميزة للقرآن فهو أنه كما قال الرسول صلى الله
عليه وسلم بحق : « لا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه
كيف والزمن يشهد كل يوم بأنه من عند الله الحكيم الخبير .

لقد شهد أحد القسس للإسلام بهذه الميزة فقال القس لوازون :

« ليس فى الاكتشافات العلمية الحديثة ولا فى المسائل التى انتهى حلها ، والتى تحت الحل ما يغاير الحقائق الإسلامية الوضاءة والسهلة المأخذ . ولهذا فإن التوفيق الذى نبذل كل جهدنا معاشر المسيحيين لإيجاده بين العقل والاعتقاد فى ديننا المسيحى هو سابق موجود فى الديانة الإسلامية » ا هـ .

شهد الأنام بفضله حتى العدا

والفضل ما شهدت به الأعـــداء

التربية النفسية

أيها السادة . .

اضطررت اضطراراً إلى أن أتوسع معكم فى التربية العقلية التى جاء بها القرآن ، فكثير من طلبة المدارس بعد انتهاج سياسة دنلوب التعليمية لا يعلم شيئاً عن القرآن ، وكل مايفهمه أنه كتاب وعظ وكفى .

والآن وقد تجلى فضل القرآن وأثره فى التربية العقلية ، وسبقه فى سائر نواحى الحياة الفكرية .. ينبغى علينا بعد ذلك أن نتحدث عن التربية النفسية .. وسنختزل الحديث فيها خشية الإطالة فنقول :

وجه القرآن همه إلى تنقية الإنسان من دنس الرذيلة ، وتحليته بشعار الفضيلة ، فأمره بفعل أنواع الخير ، ونهاه عن سائر أنواع الشر جملة وتفصيلا ، قال تعالى : « **وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** » ٢٢ : ٧٧ « **فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً** » ٥ : ٤٨ وقال : « **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى** » ١٦ : ٩٠ .

وقد أطنب القرآن فى شرح المأمورات والمنهيات بمالامتسع لذكره إلا على سبيل الإشارة .. فقد أمر بالصدق والوفاء

والأمانة، والعدل والإحسان، وبر الوالدين، والأقارب والفقراء، والعفو وغض البصر، والتعاون على الخير، والإصلاح بين الناس .. ونهانا عن المنكر والبغى، والظلم والقتل، والسرقة والخيانة، والزهو والسخرية بالناس، والغيبة والنميمة وسوء الظن، والتعاون على الإثم والعدوان .. إلى غير ذلك مما يطول تقصيه وتتبعه والاستشهاد عليه بآيات القرآن . . غير أنا نريد أن لا يفوتنا الإشارة إلى أسس التربية النفسية فى القرآن على ما نرى وهى :

١ ـ العزة ٢ ـ حب الحق ٣ ـ الصبر

فالعزة حاول القرآن أن يشرب بها قلب المسلم، وأن يجعلها جزءا من عقيدته تختلط بدمه ولحمه، قال تعالى : « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** » ٦٣ : ٨، وفى سبيل تربية النفوس على العزة قرر ما يأتى :

١ ـ عقيدة التوحيد : فالمؤمن الذى يؤمن بالله وحده ولا يشرك معه أحداً من خلقه يشعر بالعزة ويحس بالكرامة.. حيث يرى نفسه مع الناس جميعاً على قدم المساواة .. كلهم مخلوقون من طينة واحدة، فلا يتأله أحد على أحد، ولا يتعالى إنسان على إنسان ؛ وهم فوق ذلك صنعة الله التى صنعها بيده، وأبدعها بقدرته « **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم**

الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك » ٨٢ : ٦، ٧، ٨ .

٢ ـ حوائج العباد جميعاً بيد الله : فالحياة والرزق والجاه كلها لا سبيل لأحد عليها سوى الله .. وقد قرر القرآن هذه الحقيقة وكررها حتى يقتلع جذور المذلة من نفس المؤمن .

فالرزق وهو ما يتنازع عليه العباد ، وتتصـــارع عليه الدول طمأننا عليه المولى فقال : « **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين** » ١١ : ٦ « **أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه** » ٦٧ : ٢١ « **قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله** » ٣٤ : ٢٤ « **نحن نرزقكم وإياهم** » ٦ : ١٥١ « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** » ٤٣ : ٣٢

فلكل إنسان رزق مقسوم ، وهو مسجل فى كتاب مبين ، فعليه أن يطلبه من الله وحده ويسعى إليه بالوسائل المشروعة ، عزيز الجانب ، عالى الهمة كريم النفس « **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** » ٦٧ : ١٥ ، وليؤمن من قرارة نفسه أن الله وحده هو الذى أنعم عليه كما أنعم على بقية الناس . . قال تعالى : « **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** » ٣٥ : ٣ .

ولا يحسبن إنسان أن الخشوع والمذلة تزيدان فى الرزق .. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب فإن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها » فعلى الرجل منا أن يختار أشرف الوسائل ، وأن يسلك أحسن السبل التى تحفظ له وجهه ، وتحمى كرامته ، وتصون عزته ، وبعد ذلك فليثق بوعد الله ، وليرض بقدره ، فسبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .

بهذا أيها السادة يستريح الناس جميعاً ، فلا يجرى إنسان وراء درجة ليست له ، ولا يختطف رجل حق أخيه ، ولا يحمل لأحد حقداً ، كما لا يضمر له سوءا .. وبهذا يريح ويستريح .

والجـــاه أيضا يا سادة بيد الله وحـــده .. قال تعالى : **« قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله »** ٢٣ : ٨٨ ، وقال : **« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير »** ٣ : ٢٦ **« إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون »** .

وكذلك الحياة .. وهى غاية الإنسان وأمله ، وأشد مايحرص

عليه كل ذى نفس ليست بيد أحد إلا الله وحده . . قال تعالى : « **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** » ٧ : ٣٤ « **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** » ٩ : ٥١ .

إذن ما دام الرزق ، والجاه ، والحياة ليست بيد أحد إلا الله فليس هناك ما يدعو إلى المذلة ، أو يدفع إلى المهانة ، فليحرص كل إنسان على كرامته ، وليحافظ على عزته .

لكن أيها السادة قد يتغالى الإنسان فى العزة ، فيصبح شأنه كمن قال الله فى حقه : « **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد** » ٢ : ٢٠٦ .

هنا يتابع القرآن رسالته فى التربية النفسية .. فيثير فى النفس محبة الحق ، ويوحى إليها احترامه وتقديسه ، ويدعوها إلى اتباعه والرضا به . . ولكى تتركز هذه المعانى وتثبت فى الأذهان قرر القرآن ما يأتى :

١ ـ الناس جميعاً أعضاء فى جسم واحد .. فما يؤلم عضواً منها تتألم له بقية الأعضاء . . والعاقل لا يؤذى نفسه ، ولا يلحق بها ضرراً .. ومن هنا نجد القرآن يتسامى بالروح الإنسانية فيرفع الناس إلى مقام النفس ، ويجعل الإحسان إليهم إحسانا إليها ، والإساءة إليهم إساءة إليها .. قال تعالى :

« يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » ١٠ : ٢٣ **« ولا تلمزوا أنفسكم »** ٤٩ : ١١ **« ولا تقتلوا أنفسكم »** ٤ : ٢٩ **« إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها »** ١٧ : ٧ .

٢ – خلق فيهم رقيباً من داخل نفوسهم يمنعهم من الجور ، ويصدهم عن الشر ، وأساس هذه الرقابة هو عقيدة الجزاء.. فالناس محاسبون على أعمالهم ، وسيتولى حسابهم من يعلم السر وأخفى ، وسيكون حسابهم دقيقاً **« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »** ٩٩ : ٧ ، ٨ **« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين »** ٢١ : ٤٧ .

وهكذا ربى فى النفس الخشية وأشعرها بشدة الرقابة ودقتها ، فالقائم عليها هو من **« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يقضى بالحق »** ٤٠ : ١٩

٣ – أقام على الحق حراساً فى الخارج يحافظون عليه ، ودعاة يهدون إليه ، وأحسن جزاء القائمين بالدعوة فجعلهم من المفلحين الذين نأوا بأنفسهم عن الخسران .. قال تعالى : **« والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »** ١٠٣ : ١ ، ٢ ، ٣ وقال **« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »** ٣ : ١٠٤ .

٤ ـ حارب جنود الباطل ، وحذر من الوقوع فى شركهم ، فنهانا عن اتباع الهوى ، وعن الافتتان بالدنيا .. قال تعالى يخاطب نبياً من أنبيائه : « **يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** » ٢٦:٣٨ وقال سبحانه : « **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** » ٣٥:٥٠

بعد هذا لم يغب عن القرآن أن ينزل على حكم الواقع .. فالحياة بتكاليفها شاقة مريرة ، والنهوض بأعبائها محفوف بالمكاره ، وإرساء هذه القواعد التى وضعها لا يتم بسهولة . . وهنا نجد القرآن يحثنا على الصبر ويضعه بجانب الحق .. قال تعالى : « **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » ٣:١٠٣ ، ولا يمكن أن نغفل مكانة الصبر فى التربية النفسية .. فهو عصبها وروحها ، به تحلو الحياة المريرة ، وتسهل المطالب العسيرة ، وتنعم النفوس بنعمة الهدوء والاستقرار .

والصبر الذى يريده القرآن يشمل الصبر على المأمورات ، والصبر عن المحظورات ، والصبر على المقدورات .. قال تعالى: « **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** » ١٢ : ٩٠ ويكشف الله تعالى القناع عن فضل الصبر والعفو فيقول :

ى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا
ـ وبينه عداوة كأنه ولى حميم،وما يلقاها إلا الذين
صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ٤١ : ٣٤، ٣٥
وبهذا الأسلوب البديع يحاول القرآن أن يملأ النفوس أمناً
وإيماناً ، ويطمعها فى حظ عظيم إن فاتها حظ عاجل .. وحين
تسيطر على النفس حالة تدفعها إلى الأخذ بحقها يقرر القرآن :
« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله »
٤٢ : ٤٠ .

وهكذا دائماً يخضع القرآن لحكم الواقع ، وينزل من السماء
ليعيش مع الناس على وجه الأرض .. ولكن على أرض طاهرة
يسودها الهدوء ، ويعمها الوفاق .. وحين يصاب الإنسان بنازلة
تعكر صفوه ، وتكدر جوه ، ولا يجد سبيلا إلى التخلص
منها يتقدم إليه القرآن مصافحاً ومحيياً ومبشراً : « وبشر
الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه
راجعون » ٢ : ١٥٥ ، ١٥٦ « إنما يوفى الصابرون أجرهم
بغير حساب » ٣٩ : ١٠ « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو
خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم
لا تعلمون » ٢ : ٢١٦ ..

وهكذا يعيد إلى النفس من جديد صفاءها واطمئنانها ،
وسرورها وهناءها .

أيها السادة . .

هذه هى أسس التربية النفسية كما وردت فى القرآن على ما نرى وقد ذكرناها باختصار .. والآن ننتقل بكم إلى التربية البدنية .

التربية البدنية

لم يغفل القرآن شأن التربية البدنية ، فقد وضع للبدن نظاماً يحفظ له صحته ، ويجدد له قوته ، ويحميه من الأوصاب والعلل .. ونقتصر هنا على أسس التربية البدنية فى القرآن :

١ ــ حمى القرآن حياة الإنسان وصحته ، وجعل التكاليف تتبعهما وتتأثر بهما .. ومن أجل هذا قرر : « **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** » ٢ : ٢٨٦ « **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** » ٢٢ : ٧٨ « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » ٢ : ١٨٥ .

وتمشيا مع التيسير الذى هو روح القرآن أباح للمسافر والمريض أن يفطر شهر رمضان . . قال تعالى : « **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** » ٢ : ١٨٥ .

وأباح لمن لم يجد المـاء ولمن يشق عليه استعماله أن يتيمم « **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً** » ٥ : ٦ .

وأسقط الجهاد عن المرضى فقال : « **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله** » ٤ : ٩٥

ونفى الحرج عنهم فقال : « **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ماينفقون حرج** » ٩ : ٩١ « **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** » ٤٨ : ١٧ .

٢ – نهى عن التغالى فى الدين قال تعالى : « **لا تغلو فى دينكم** » ٤ : ١٧١ ، وأوجب القصد فيه ، ورسم لذلك الخطة السليمة ، والطريقة القويمة فقال : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » ٢٨ : ٧٧ .

٣ – أباح لنا زينة الحيـــاة ولذائذها . . قال تعالى : « **خلق لـكم ما فى الأرض جميعاً** » ٢ : ٢٩ « **ألم تروا أن الله سخر لـكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** » ٣١ : ٢٠ « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** » ٧ : ٣٢ ، وقال تعالى : « **والأنعام خلقها لـكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولـكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** » ١٦ : ٥، ٦ وقال : « **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلـكم تشكرون** » ١٦ : ١٤ .

٤ – قرر مبدأ (الوقاية خير من العلاج) قال تعالى : « **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** » ٢ : ١٩٥ .

والوقاية فى القرآن تقوم على دعائم :

(ا) **النظافة** : فقد أمرنا الإسلام بها وحثنا عليها ، ورغبنا فيها .. قال تعالى : « **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** » ٢ : ٢٢٢ .

(ب) **الرياضة البدنية والتمرينات العملية** : وحسبنا فى هذا أنه أوجب علينا الوضوء والصلاة فى اليوم خمس مرات .

(ج) **المأكل والمشرب** : وقد راعى القرآن فيهما :

أولا : عدم الإسراف .. قال تعالى : « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** » ٧ : ٣١ ، وقد اشتهر على ألسنة الحكماء من قديم (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء) وتمشياً مع هذا المبدأ شرع الصيام .

ثانياً : أن يكون كل من المأكل والمشرب خالياً من الأقذار والعفونات والميكروبات ، قال تعالى : « **كلوا من طيبات مارزقناكم** » ٢ : ١٧٢ ، وتمشياً مع هذا المبدأ حرم الإسلام الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير .. قال تعالى : « **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير** » ٥ : ٣ وقال : « **ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** » ٧ : ١٥٧ .

هذه أيها السادة عناصر التربية البدنية فى القرآن ذكرناها مجردة من التعليق والشرح خشية الإطالة .. وإذا كان لنا أن نتحدث بعد ذلك عن أثر القرآن فى تربية العقول والنفوس والأبدان فليس أمامنا إلا أن نعود إلى الوراء ، ونستحضر تاريخ أسلافنا المجيـــد ، أولئك الذين استظهروا القرآن واستنبطوه ، فصحت أجسامهم ، وسلمت عقولهم ، وعظمت أخلاقهم ، وأرغموا التاريخ على أن يفتح لهم صفحة بيضاء ناصعة ، تشهد لأستاذهم فى التربية وهو القرآن بأثره العميق ، وفضله الباهر ، وتأثيره السحرى العجيب .

وإن أنس لا أنسى أنه بنى دولة إسلامية ، وأنشا أمة ناهضة قوية كانت قبل ذلك فى تأخر وانحلال ، وتدهور واضمحلال ، وجهل وإقلال .. فما كاد يسطع عليها نوره ، ويتألق فى جنباتها شعاعه ، حتى أصبحت وحدة لا تتجزأ وكتلة لاتتخلخل، وقوة لاتضعف ولا تهن .. وكذلك صارت به عزيزة منيعة . . أفكار صائبة ، وعقول ثاقبة ، ونفوس مهذبة ، وطبائع قويمة ، وأخلاق كريمة وأعمال حميدة ، وآمال بعيدة ، وخطط سديدة ، ونهضة موفقة قوامها العلم وسلاحها الخلق ، ودرعها الإيمان ، ورائدها العمل الصالح .. واستمع إليه ينبئك أنه قد أعد منهم سادة ، وخلق منهم قادة . . سادة يخضع لهم الرئيس ، ويدين لهم الأمير .. وقادة ينقاد لهم الكبير

قبل الصغير ، وما كانوا يصلحون قبله إلا لقيادة الخيل والبغال والحمير .

أيها السادة . .

ماذا أقول عن أثر القرآن فى التربية ؟ إننى أدع العلامة (دروى) وزير معارف فرنسا سابقاً يسجل فى تاريخه ويقول :

(بينما أهل أوربا تائهون فى بيداء الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط إذ سطع نور قوى من جانب الأمة الإسلامية من علوم وأدب ، وفلسفة وصناعات ، وأعمال يد وغير ذلك .. حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وتونس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة معارف ، ومنها انتشر فى الأمم ، واغتنم منها أهل أوربا فى القرون الوسطى مكتشفات وصناعات وفنون علمية ، وأقاموا أساس ممالكهم على شرائع الإسلام) .

قال (هيرشفيلد) : (وليس للقرآن مثيل فى قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه وإليه يرجع الفضل فى ازدهار العلوم بكافة نواحيها فى العالم الإسلامى) .

وقال المؤرخ الإنجليزى الشهير ولزآن :

(إن الديانة الحقة التى وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هى الديانة الإسلامية ، وإذا أراد إنسان أن يعرف شيئاً من

هذا فليقرأ القرآن وما فيه من نظريات علمية ، وقوانين وأنظمة لربط المجتمع ، فهو كتاب علمى دينى ، عملى اجتماعى ، تهذيبى خلقى تاريخى ، وأكثر أنظمته وقوانينه تستعمل حتى وقتنا الحالى وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة) .

وذكر الفيلسوف تولستوى الروسى فى كتابه « حكم النبى محمد » :

(ولما وحد النبى محمد قبائل العرب ، وأنار أفكارهم وأبصارهم بمعرفة الإله الواحد ، هذب أخلاقهم ولين طباعهم وقلوبهم وأصلح عاداتهم البربرية الهمجية ، وجعلهم أمة مستعدة للرقى والتقدم) .

قال الفيلسوف الفرنسى (ألكس لوازون) :

(خلف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة ، وسجل للأخلاق ، وكتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية . . فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية) .

أيها السادة . .

ما أحسن أن نتمثل بهذه الأبيات :

يا ابن العروبة سر فأنت الأسبق	بطريق مجدك فالنجاح محقق
هذا هو القرآن نبراس الهدى	دستورك الأسمى المنير المشرق

آياته نبع العلوم جميعها   من قال لا فهو الغبي الأخرق
علم الطبيعة والحياة وحكمة   الإيجاد من تبيانه تتدفق
وسياسة الدنيا بأقوم شرعة   بين الورى بسواه لا تتحرك
فيه القضاء لحل كل قضية   عن حلها أهل السياسة أخفقوا
عودوا إلى القرآن عودة باحث   ترك الهوى والعقل حر مطلق
وخذوا دساتير الحياة جميعها   من آيه وعلى الخليقة أشفقوا
فهو الدواء لكل أدواء الورى   وهو الطبيب لكل سقم صدقوا
فالغرب لما سار سار بنوره   وعلا وقبل الغرب سار المشرق
يا قوم أحمد مجدكم قرآنكم   فهو الكتاب العالمي الأصدق

من الذين وعدهم الله بالنصر (١)

فى هذه الأيام وبعد الهزيمة المرة التى لحقت بالعرب نجد سؤالا يلح على كل إنسان ، ويدور فى جميع الأذهان ، ويتردد على كل لسان ، لماذا هزمنا وقد وعدنا الله بالنصر فقال : « **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ؟ . .

ومن العدل والإنصاف قبل أن نسأل الله لماذا لم ينصرنا . . أن نسأل أنفسنا هل تأهلنا لنصر الله ؟ وحققنا ما به ننال عونه ورضاه ؟ وتوضيحاً لهذا أقول : إن الله وعد بالنصر أولئك الذين عمرت قلوبهم بالإيمان لا أولئك الذين انتسبوا إلى الإسلام مجرد انتساب عار من الإذعان وقد رد الله على قوم حسبوا أنهم بارتداء ثوب الإسلام والتظاهر به أصبحوا مؤمنين فقال : « **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** » .

الإيمان مرده إلى القلب وهو مناط النصر فقد قال تعالى : « **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** » ولم يقل (يدافع عن الذين أسلموا) وقال : « **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** » ولم يقل « نصر المسلمين » وقال : « **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا** » ولم يقل (والذين أسلموا) .

---

(١) نشر بمجلة الاعتصام عقب هزيمة ١٩٦٧ بعدد ذى الحجة ١٣٨٨

وقال : « **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم** » ولم يقل (يا أيها الذين أسلموا) وقال : « **نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** » ولم يقل (وبشر المسلمين) وقال : « **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** » ولم يقل (فأيدنا الذين أسلموا) .

وقال : « **يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** » ولم يقل « يومئذ يفرح المسلمون » وقال : « **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً**) ولم يقل « وعد الله الذين أسلموا »

لم يعد الله بالنصر أولئك المسلمين الذين اكتفوا بالانتساب إلى الإسلام ، ولكنه وعد بالنصر أولئك الذين تغلغل الإيمان فى قلوبهم ، وسيطر على أفئدتهم ، وبدت ثماره واضحة فى سلوكهم .. ولا عجب فالقلب هو صاحب الكلمة المسموعة ، والرأى النافذ . . القلب هو الموجه لجوارح الإنسان وحواسه بما له عليها من نفوذ وسلطان فإذا صلح صلحت ، وإذا فسد فسدت . . وإلى هذا يشير الحديث الشريف الذى أخرجه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) .

وإذا قلنا إن الله وعد بالنصر المؤمنين لا المسلمين فلسنا نلمح بهذا إلى وجود جفوة بين الإيمان والإسلام . . كلا ولكننا نريد أن نقول : إنه لا يكفى فى استجلاب معونة الله أن نتظاهر بالإسلام .. بل لابد أن نؤمن بكل ماجاء به وندعن لكل ما دعا إليه ، ونتبع سبيل المؤمنين فى العقائد والمعاملات والأخلاق .. لابد أن نستجيب استجابة نابعة من القلب لكل تعاليم الإسلام، ونهتم بتنفيذ وصاياه فيما يخص الفرد والمجتمع والدولة فى السياسة والحكم فى كل شأن من شئون الحياة . . فهذا هو مقتضى الإيمان .

نعم مقتضى الإيمان أن نذعن لحكم الله ورسوله . . قال تعالى : « **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** » .

مقتضى الإيمان أن تمتلىء قلوبنا بخشية الله ، وتلتزم جوارحنا بطاعته قال تعالى : « **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً** » وقال : « **قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ،**

والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

مقتضى الإيمان أن نخلص لله ولرسوله ، ونبذل النفس والنفيس جهاداً فى سبيله .. قال تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

مقتضى الإيمان أن ننفذ كل وصية لله ، ونمتثل كل ما أمرنا به ، ونتجنب كل ما نهانا عنه .. وسبحانه لا يأمر إلا بالخير ، ولا ينهى إلا عن الشر ، ولا يحل إلا الطيبات ، ولا يحرم إلا الخبائث قال تعالى: « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » وقال : (يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » وقال : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون » وقال: « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » .

نعم . . إن الإيمان هو دليل كل خير ، ومغلاق كل شر ، ومن أجل هذا أقام المولى عليه دعوته الإصلاحية التى ترمى إلى إسعاد الفرد والمجتمع والدولة ، فباسمه دعانا إلى كل فضيلة ، ونفرنا من كل رذيلة .

باسمه أرشدنا إلى ما يصلح جسومنا وعقولنا ونفوسنا ، ونهانا عن كل ما يضر بها .. قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** » .

باسمه رغبنا فى الأخلاق الكريمة ، ونفرنا من الصفات الذميمة ، ودعانا إلى الآداب الفاضلة التى تسمو بالفرد وتشد أزر المجتمع قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** » وقال : « **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** » وقال : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** » وقال : « **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون** » وقال : « **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا**

قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » وقال: **« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً »** وقال : **« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » .**

باسم الإيمان حارب الربا وأكل أموال الناس بالباطل، ودعا إلى الجود والعدل ليربي النفوس على الإيثار لا الأثرة، وعلى السماحة لا الأنانية ، وعلى الكرم لا الشح .. قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين »** وقال : **« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما »** وقال : **« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد »** وقال : **« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » .**

باسم الإيمان قوى روابط الود بين الحاكم والمحكوم . .

فالحاكم عليه أن يتوخى الحق ، ويتجنب الباطل ، وينأى عن اتباع الهوى..والمحكوم عليه أن يسمع ويطيع مالم يؤمر بمعصية، وعندما يقع خلاف بينهما فالواجب أن يتحاكما إلى دستور الله الذى أوحى به إلى نبيه ومصطفاه .. لا إلى دستور أحد سواه قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** » .

باسم الإيمان دعانا إلى التسلح بالأسلحة الروحية والمادية ، وحذرنا من موالاة الأعداء قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** » وقال : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** » وقال : « **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** » وقال :

« **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً** » .

المؤمنون الصادقون هم الذين سمعوا نداء الله لهم فأسرعوا إلى إجابته ، واستجابوا لدعوته ، وثوقا منهم فى حكمته . . والله يعلم وأنتم لا تعلمون « **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب** » .

هؤلاء المؤمنون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم الذين عناهم بقوله : « **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** » إن نصر الله لهؤلاء محقق لا ريب فيه ، فقد وعدهم المولى به .. ولن يخلف الله وعده .

إن المؤمنين الصادقين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .. يعيشون فى كنف الله ، لا يصيبهم فزع ولا هلع ، ولا يعتريهم قلق أو اضطراب ، آمنوا فأمنوا من الخزى فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة . . قال تعالى : « **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** » وثقوا فى الله فأنعم عليهم بنعمه وتعهدهم بكرمه وشملهم بعنايته فى دنياهم وأخراهم « **الله ولى الذين آمنوا**

يخرجهم من الظلمات إلى النور » « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما » « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب» « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » .

لابد من الإيمان بالله إيمانا صادقا .. فالإيمان الصادق أمان للخائفين ، وحصن للمستضعفين ، وهدى للحائرين ، ونور للمسترشدين **« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » « فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا » « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما »** .

لابد أن نقيم مجتمعنا ودولتنا على قاعدة (الإيمان) حتى ننزع الخوف من القلوب ، فلا نتهيب أعداءنا ، ولا نخشى خصومنا . . إن التربية الإسلامية تحارب الخوف من كل ماسوى الله ، وتجتث جذوره ، لأنها تعمل على تكوين أمة فتية قوية ، والخوف يضعفها ويفككها وينهك قواها .

ومن أجل هذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يتعقبه فى كل صوره حتى يحسم عبالته ، ويكسر شوكته ، ويفل شبابه . . عن جرير أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم

من بين يديه فاستقبلته رعدة . . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » أخرجه الطبراني في الأوسط .. إن النبي صلى الله عليه وسلم لاطف الرجل وتبسط معه إلى هذا الحد لأنه لا يريد أن يكون بين المسلمين خائف رعديد .. بل يريد أن تكون قلوبهم قوية لا ترتاع ولا تضطرب حتى يمكن لها أن تقف في مواجهة الأعداء ساعة النزال .

نعم . . لقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم أن يربي القلوب تربية تعدها لمواقف البطولة والشهامة فلا تخاف أحداً إلا الله .. وخوفها من الله ليس مصدر ضعف لها بل هو على العكس مصدر قوة .. فهو يدفعها إلى أعظم المواقف ، ويعينها بقوة الله ، ويمدها بروح منه .. ومن دلائل محاربة الإسلام للخوف أنه حرم على المؤمنين ظن السوء ، وأن يتجسس بعضهم على بعض .. قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا** » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » أخرجه أبو داود عن جبير بن نفير وآخرين . وعمل الإسلام على تصفية النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتقوية الروابط ، وتوثيق الصلات ، وتأليف القلوب .. ومن أجل هذا رغب في دفع السيئة بالتي هي أحسن .. قال تعالى : **« ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا**

الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » وبذلك قضى الإسلام على تلك الوسائل الخسيسة التى تفكك الأمة، وتضعف قوتها ، وتملأ قلوبها بالمخاوف فلا تجعلها صالحة بعد للصمود أمام عدو ، وهل يمكن لقلوب يخاف بعضها من بعض .. فى المسجد ، فى البيت ، فى الشارع ، فى أماكن العمل .. هل يمكن لها إذا وقفت أمام عدوها أن تزيل الخوف من قلوبها ؟ إن الخائف من أخيه إذا وقف أمام عدوه كان أشد خوفاً وأعظم رهبة .

إن الأمة التى يقوى إيمانها بالله يكون لديها ضمير حى يعصمها من الدنايا ، ويبعدها عن المعاصى ، ويدفعها إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة ، والقيام بما يمليه عليها الواجب .. إن الأمة التى يقوى إيمانها بالله تتآخى وتتآلف حباً فى الله ، وطمعاً فى رضاه .. إن الأمة التى يقوى إيمانها بالله تصمد أمام أعدائها وتلاحقهم فى عزم ويقين .. لا يثنيها عن ذلك قلة عددها أو عددها .. فهى تعلم أن الله تكفل للمجاهد فى سبيله .. إن مات بأجر كريم ، وإن عاش بنصر عظيم ..

ولنعد إلى التاريخ نسأله فهو شاهد عدل وراوى صادق .. عندما اختار عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص لقيادة الجيش الذى بعث به إلى الفرس نصحه قائلا : « يا سعد بن أم سعد ..

لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله . . فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن . . وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته . . فالناس فى دين الله سواء ، وهم عباده ، يتفاضلون عنده بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة .. فانظر إلى الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه .. فالزمه » . .
وبعد أن سرحه أرسل إليه عهداً هذه صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . أما بعد . . فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال .. فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة . . لأن عددنا ليس كعددهم ، وعدتنا ليست كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ماتفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا : إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أساءنا فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على

بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس (فجاسوا خلال الديار وكان وعـــداً مفعولا) واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم .. أسأل الله ذلك لنـــا ولـكم » .

هذه النصيحة الذهبية خرجت من فم عمر لتستقر فى ذهن سعد .. وقد وعاها وظل يهتدى بها فى فتوحاته، ولم يكن سعد وحده هو الذى انتفع بها .. بل انتفع بها عامة جنده فقوى إيمانهم بالله، واشتد عزوفهم عن المعاصى ثقة منهم بأن نصر الله لايدرك إلا بطاعته، وحينما من الله على المسلمين بالفتح وسار الجند إلى (بهر سير) المدينة الغربية رأوا إيوان كسرى فتذكروا وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم .. وهو الذى رواه مسلم عن جابر بن سمرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عصبة من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض بيت كسرى أو آل كسرى .. فقويت قلوبهم، وعظمت هممهم، وصاح ضرار بن الخطاب : الله أكبر .. هذا أبيض كسرى .. هذا ماوعد رسول الله وصدق الله ورسوله .. وكبر المسلمون معه وحاصروا المدينة فانتقل منها (يزدجرد) وعبر إلى المدينة الشرقية بينه وبين المسلمين نهر دجلة : لـكن سعدا تعقبه فانتدب عاصم بن عمر سيد بنى تميم فى ستين فارساً من

قومه فعبر النهر على فرسه وهو يتلو قوله تعالى : (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا) واندفع قومه وراءه وهم يقولون : نستعين بالله ونتوكل عليه .. حسبنا الله ونعم الوكيل .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . وتملك الفرس العجب لما صنع المسلمون .. فقال بعضهم : مجانين مجانين .. وقال آخرون : إنكم لا تقاتلون إنساً بل تقاتلون جناً .. خرج عاصم ومن معه فأقام على الشاطئ وحمى الثغر ، وأمر سعد جنوده أن يعبروا على فرسانهم وتقدمهم وهو يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات .. فقال له سلمان : المسلمون بخير .. لقد ذلل الله لجنده البحر كما ذلل لهم البر ، والله ليخرجن الجنود منه سالمين كما دخلوه .. فأبر الله قسمه وخرجوا ولم يفقد أحد منهم شيئاً ، ولم يغرق منهم أحد .. غير أن رجلا زال عن ظهر فرسه فانثنى عليه القعقاع غير مفكر فى نفسه فأخرجه سالماً ، بعد ذلك سقط فى أيدى الفرس وتركوا المدينة الشرقية ، ودخل سعد القصر الأبيض وجعل يميل بصره فيما احتواه من كنوز ثمينة ، ونفائس غالية ، وجواهر نادرة ، ومتع رائعة .. ولم يلبث أن خر ساجداً لله ثم تلا قوله تعالى :

« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ،

ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) .

أخذ بعد ذلك يجمع الغنائم والأسلاب فوجد فى خزائن كسرى آلاف الملايين من الدنانير ، وتحفاً وأمتعة لا تدرى قيمتها ، وأتى له بتاج كسرى مرصعاً بالدر والجوهر ، وثيابه الحريرية المنسوجة بالذهب ، ودروعه وسروجه وأسيافه وأوانيه ، وأقبل رجل بحق نفيس فدفع به إلى والى القبض .. فقال الوالى والذين معه : ما رأينا مثله هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال لا ، والله لولا الله ما أتيتكم به.. فسألوه ما اسمه ليكافئوه فقال : لا أخبركم فتحمدونى ، ولا حاجة لى فى مكافأتكم بل أكتفى بثواب الله .. أخبر سعد بهذا فقال : والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر .. أرسل سعد بخمس هذا إلى المدينة فلما وضع بين يدى عمر قال : (إن قوماً أدوا هذا لأمناء .. فقال على كرم الله وجهه : (إنك عففت فعفت رعيتك، ولو رتعت لرتعت) .

هؤلاء هم المؤمنون الصادقون ، وهذا هوسلوكهم حكاماً ومحكومين ، وجنوداً وقادة .. لقد دعاهم الله فلبوا دعوته، ودعوه فأجاب دعاءهم، ونصرهم وخذل أعداءهم « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .

« وبعد » فقد قال تعالى فى القرآن على أدعياء الإيمان :

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » وقال : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوايكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ،مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

أسال الله أن يصلح قلوبنا بالإيمان واليقين وينصرنا على الصهيونيين والمستعمرين والملحدين .

فضل القرآن ووجوب العمل به

يقول الله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

هذا شهر يذكركم بكتاب الله ، ويجدد الدعوة لكم بأن تأخذوا بتعاليمه ووصاياه ، ويرغبكم فى تلاوته ، ويحضكم على دراسته ، ويهيىء لكم الفرصة للتفقه فيه ، والتأمل فى معانيه ، والانتفاع بما يتضمنه من أحكام وأسرار وقصص وأخبار .

والقرآن هو كتاب الله الخالد .. أنزله على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ليوثق العلاقة بين الإنسان وربه ، وبينه وبين سائر المخلوقات حتى تنتظم عمارة الكون ، ويتم صلاح العالم .

أشاد القرآن بفضل الإنسان ، ونوه بمكانته . . فبين أن الله أعده لمنصب الخلافة .. قال تعالى : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » وقال « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض » ومن يوم امتحن الله آدم وزوجه وهبط بهما إلى الأرض أعلنهما المولى بالقرار الإلهى الذى أصدره « **اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض**

عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولايشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى »

ومن ذلك الحين توالت الرسالات ، وتتابعت الرسل ، ونزلت الكتب حتى انتهى الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وإلى ما أنزل عليه من الكتاب المبين.. قال تعالى : « **إنا أرسالناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير** » .

وهكذا نفذ الله القرار الذى أعلن به آدم وزوجه ونسله .. فبعث الرسل ، وأنزل الكتب ، وأعان أهل الحق ، وخذل أهل الباطل ، وقد اتفقت دعوة الرسل فى هدفها وطريقها . . فكلهم دعا وسعى بالحكمة والموعظة الحسنة لتوحيد القلوب ودفعها إلى الخير ، وتنفيرها من الشر ، والتوجه بها إلى إله واحد .

وفى دعوتهم هذه لم ينكروا بل لم ينكر الله عليهم أن ينالوا من الدنيا وطيباتها ما تقتضيه ظروف الحياة فى حدود

الاعتدال وفق ما رسمه الله .. قال تعالى : « **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** » .

ولحكمة ما قدم الله ما أباحه للرسل من الطيبات على ما أوجبه عليهم من عمل ، وما كلفهم به من واجبات ، ليكون هذا باعثاً لهم ولسائر الناس على إجابته والإسراع إلى طاعته ، شكراً لله سبحانه على ما أسبغ من نعمته .. بهذا جاءت الرسل ، واتفقت الرسالات . . فكلهم دعا إلى الله ورغب فى العمل الصالح . . ولذلك أوجب القرآن أن نؤمن برسله جميعاً دون تفريق فقال : « **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** » .

وبهذا جمع القرآن الناس على مائدة واحدة ، وربط قلوب بعضهم ببعض ، وأزال أسباب النفرة بين أهل الأديان الحقة ، واتجه بهم إلى الله الواحد الأحد فى وحدة متناسقة .. ومن فضل الله علينا أن القرآن وهو خاتم الكتب جمع بطرق العبارة أو الإشارة كل ما يحتاج إليه الناس وينهض بهم ، ويعالج شئونهم فى كل نواحى الحياة . . فهو آية كبرى ، وحجة خالدة ، وعقيدة صافية ، وعبادة هادية ، وقانون تام ،

وسياسة ناجحة ، وإصلاح اجتماعى ، ونظام دولى ، ودائرة معارف يعتمد عليها المسلمون فى دينهم ودنياهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول : **(ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »**

نعم لقد تمت النعمة وكملت المنة .. فنحن فى غنى عن كل المبادىء والمذاهب ، والقوانين والدساتير الأجنبية ، شرقية كانت أم غربية .. قال تعالى : **« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »** .

إن الله الذى خلق الناس لم يدعهم هملا ، ولم يتركهم سدى ، بل شرع لهم شرائع ، وسن لهم قوانين أوجب عليهم أن يلتزموها ، وألا يحيدوا عنها ، تطبيقاً لقراره القديم **« فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى »** .

ولا ريب أن ما شرعه الله أحكم وأنفع مما وضعه الإنسان . . فالمولى هو الذى خلق الإنسان ، ويعلم ظاهره

وباطنه ، وما ينفعه وما يؤذيه ، وما يلائمه وما يجافيه . . قال تعالى : « **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** » وقال : « **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** » فما قرره المولى فى القرآن من أحكام ينبنى على حكم إلهية ، وأسرار ربانية . . قال تعالى : « **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما** » .

وأحكام الله سبحانه يسر لا عنت فيها ولا مشقة ، ولا كلفة فيها ولا حرج . . قال تعالى « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » وقال : « **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** » ولا عجب فالرحمة صفة من صفات الله الذى أوحى بهذه الأحكام . . قال تعالى : « **إن الله بالناس لرءوف رحيم** » . وهى صفة من صفات رسوله الذى نزلت عليه . . قال تعالى : « **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » وصفة من صفات دستوره الذى نزل بها واشتمل عليها . . قال تعالى : « **فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة** » . . فالرحمة كما سبق صفة من صفات الله ورسوله وكتابه . . فلا بدع إذا لمسنا آثار هذه الرحمة تتجلى فيما جاءنا من أحكام ، وما ألزمنا به من تكاليف . . وحسب الباحث المفكر أن يقرأ فاتحة الكتاب ويتأمل هذا البدء العجيب الرائع ليرى كيف يفتتح الله القرآن بما يلقى عليه الهيبة ، وما يبعد اليأس عن النفوس ،

وبما يقيم الرابطة بين الإنسان وربه على أساس من الحب العميق، والرحمة الشاملة التي وسعت كل مخلوقات الله .. فأول مايقرع السمع (بسم الله الرحمن الرحيم) فباسم الله صدر هذا الدستور .. لم يصدر باسم ملك متجبر، ولا أناس لهم هوى يتحكم فيهم .. نعم صدر باسم الله الذى تنزه عن الهوى وعن العبث وعن السفه .. صدر باسم الله ليكون له وقع فى النفوس، وهيبة فى القلوب تحمل على اتباعه وتقديسه، والابتعاد عن التلاعب به .. لأنه صادر ممن بيده الملك وهو على كل شيء قدير .. صدر هذا الدستور باسم الله الرحمن الرحيم .. وهكذا يستقبلنا دستور الله باسميه : الرحمن الرحيم ليذكرنا برحمته الواسعة، وليطمئننا على أن هذه الأحكام لا عنت فيها ولا مشقة، لأنها صادرة من الرحمن الرحيم، ويثنى بعد ذلك المولى بقوله « الحمد لله رب العالمين » فمنزل القرآن هو صاحب النعم .. جليلها ودقيقها، أصولها وفروعها، المستحق للحمد من جميع الخلائق .. فهو رب العالمين وليس رب المسلمين وحدهم بل هو رب المسلمين واليهود والمسيحيين وغيرهم من الخلائق يتعهدهم بتربيته، ويتولاهم برحمته، وبهذا المطلع يلقى فى قلوب الناس جميعاً الرضا والاطمئنان إلى أحكامه ومبادئه .. ففيها ماينفعهم ويحميهم لا ما يضرهم ويؤذيهم .. ومن لطف الله سبحانه أنه يعود بعد ذلك مباشرة فيقول (الرحمن الرحيم) فيضع العالمين بين رحمتين رحمة سابقة، ورحمة لاحقة :

هذا هو مطلع القرآن وما يوحى به .. أما ختامه فهو إرشاد من الله لنا لنستعيذ به من كل ما يعكر النفوس ، ويهدد السلام ، ويثير الخصام، ويفسد العلاقات .. فى هذا الختام يعلمنا المولى كيف نستعيذ به من كل مايوحى بالشر.. إنسياً كان أم جنياً .. قال تعالى « **قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والنـــاس** » .

هذا هو بدء القرآن ، وهذا هو ختامه .. رحمة من الله تبعد عنا الشر ، وتجلب لنا الخير ، وتهدينا إلى الصراط المستقيم .. فما ظنك يا أخى الكريم بما يتخلله من أحكام ومبادئ .. هل يمكن أن تشذ عن هذا المطلع وهذا المقطع ؟! كلا .. إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم .. فإلى الذين يتهيبون الإسلام ويتخوفون أحكامه نوجه إليهم هذه الكلمة فإن كانوا مخالفين لنا فى الدين من اليهود والنصارى قلنا لهم لا ترتاعوا واطمئنوا .. فالإسلام يطعمكم من جوع ، ويؤمنكم من خوف ، وطالعوا التاريخ يخبركم أن عمر بن الخطاب خرج ذات يوم فوجد يهودياً على باب مسجد يتكفف الناس فيسأله من أنت ؟ وما حالك ؟ فقال اليهودى وهو من أهل الكتاب : أسال الحاجة والجزية والسن .. فقال : ما أنصفناك .. أخذنا الجزية وقت شبابك وتركناك وقت هرمك .. ثم أخذ به إلى أمين بيت مال

المسلمين . . أى والله إلى بيت مال المسلمين . . لا بيت مال اليهود .. فقال عمر له : أنظر هذا وضرباءه فأعطهم ما يكفيهم وأهليهم بالمعروف .

كذلك يحدثنا التاريخ أن عمر بن الخطاب استدعى عمراً فاتح مصر ليحاسبه على جريرة ابنه وليمكن للقبطى من ضرب ولده الذى أساء له وليقول له بعد أن اقتص منه القبطى هذه الكلمة التى دوت فى الآذان ووعتها الأذهان على مر الزمان : (يا عمرو .. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!) هكذا أطعمهم الإسلام من جوع وآمنهم من خوف وحماهم من ظلم ، وحافظ على حرياتهم . .

وبعد . . فواجب على المسلمين فى أنحاء العالم أن يعودوا إلى كتاب الله . . يحلوا حلاله ، ويحرموا حرامه ، ويقيموا أحكامه . . عليهم أن يحتكموا إلى الشريعة الإسلامية ففيها مايغنيهم عما عداها .

وأخيراً أتوجه بهذا السؤال إلى أمثال هؤلاء الذين يتجاهلون أحكام الله أو بعض أحكامه . . هل ترون أن كتاب الله انتهت مهمته ، وانقضت مدته ، وأحيل إلى المعاش .. فلا وظيفة له اليوم بين الناس..لأن ما جاء فيه لا يمكن على زعمكم تطبيقه ، ولا يتيسر تنفيذه .. إذن فلماذا تعهد الله بحفظه بجميع ما فيه من أحكام ؟ لمـــاذا ضمن الله له الخلود

والبقاء فقال : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » هل حفظه الله ليستجدى به الناس على قارعة الطريق ، أو ليودع فى دار الآثار على أنه أثر عتيق ؟ ! كلا . . بل حفظه الله ليهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، وليحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . . قال تعالى : « **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** » وقال سبحانه وتعالى : « **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** » وقال : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما** » وقال صلى الله عليه وسلم : (كتاب الله . . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله) رواه الترمذى . .

نسأل الله أن يهدينا وإياكم بهداه . .

رقم الإيداع ١٩٧٩/١٧٣٤

دار النصر للطباعة الإسلامية

٢ شارع نشاطي - شبرا - القاهرة

تليفون : ٥٥٢٢١